جدلية الفكر اليهودي:

تجوّل المعاني في نطاق الحيز المتغير

محمد سعيد ريان*

المقدمة

لقد أمسى دور اليهودية في تأثيرها على مسار التاريخ البشري مثار جدل ونقاش تتسع دائرته يوما بعد يوم. وبات تقييم الناس لهذا الدور يقع كله في دائرة الإفراط والمبالغة وكأنه قدر نازل محتوم لا يخطيء، مما جعل الرجل العادي والشعبي يردد قولا شائعا: «لقد غلّبوا الأنبياء». ان هناك أبحاثا لها اعتباراتها كموسوعة التاريخ العام للحضارة تجعل منهم أسيادا وحكاما يمسكون بخناق العالم اقتصاديا وسياسيا وإعلاميا، ومدى تأثيرهم على الطبقات المتنفذة والنخب التي تدير سياسة هذا العالم حتى قبل القرن التاسع عشر، خاصة ما تذهب إليه الرواية الماسونية.

ما من شك، أن لليهود دور فعال في تشكيل المنظومة المعرفية للإنسان، لا يغفل عنه ولا ينكره إلا من أنكرته المعرفة ذاتها، وغفل عن قراءة الحقائق المحفورة في ثنايا التاريخ وأعماق الفكر. ما من شك كذلك، من أن فاعلية الدور اليهودي وتأثيره يفوق أضعافا مضاعفة نسبة اليهود إلى غيرهم من بني البشر. فليس عبثا أن يقرر القرآن الكريم حقيقة تلك «ولقد اخترناهم على علم على العالمين» (الدخان ٣٢) وكذلك: «وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء عظيم» (الدخان ٣٣). ولهذا من الصعب، بل من العسير أن يستطيع الدارس والباحث تأكيد هذا الدور بوضوح ظاهر، لأنه يتعامل مع دور يحاول فاعلوه إخفاءه بعناية. ولهذا لا يبقى أمام الباحث الا أن يجند القرائن المتباعدة وأن يحشر العدد الكافي من الدلائل والإشارات، ولا بدّ كذلك من تأويل بعض هذه الدلائل والقرائن، والتي تشير بشيء ما إلى إبراز هذا الدور، فهو حفر في العمق أكثر منه توسعا في الأفق. فإذا كان لليهود ذلك الدور المبكر في المساعدة لترتيب الأحداث التاريخية والسياسية لتجيء بحاكم مثل كورش لتأخذ

* باحث ومفكر، يحمل درجة الماجستير في الفلسفة والعلوم السياسية، له عدة نشرات وابحاث اكاديمية، عمل رئيس مجلس محلي كابول.

منه موقفا مؤيدا لسياستها بمنحها فرصة إعادة بناء الهيكل للمرة الثانية، وهي قريبة عهد بسبي بابل، فكم سوف يتضاعف هذا الدور فيما بعد.

ما من شك أيضا، بأن اليهود حتى يصبح لهم هذا التأثير الكبير الذي يفوق عددهم ونسبتهم الى غيرهم، لا بدّ أن تكون لهم حركة خفية تتلبس على التاريخ وتمخر عباب الفكر، كما قد تتلّبس على الأمم والشعوب. فعلى سبيل المثال – لكي تؤثر على منحى المسار للمسلمين، لا بدّ أن يكون من بين المسلمين يهودا يحاولون تبيئة الأفكار «الأخرى» غير الإسلامية والتي تتلبّس على المسلمين. وكذلك الحال مع المسيحيين في العصور الوسطى وفي عصر النهضة (الرينسانس) وما تلى ذلك من عصور. وهذا الدور يستطيع القارىء لهذا البحث أن يتأكد منه ويتبينه من مراجعة الهوامش، فقد أوردنا فيه من القرائن والدلائل ما نجلو به كثيرا من الشكوك وندخل منطقة اليقين بالحجة البينة والبرهان الساطع.

وكذلك هو وضع اليهود وتأثيرهم في السياسة الأوروبية والأمريكية الحالية، وتأثيرها على سياسة الاتحاد السوفييتي في حينه، فقد كانت وما زالت تمسك بأطراف الحبال بين المتصارعين. وقد أخطأ هؤلاء العرب شعوبا وساسة عندما ظنوا أن الاتحاد السوفييتي حليفا لهم من دون اسرائيل. يظهر هذا من سوء تجهيز العرب بأنواع السلاح الروسي التي ما أغنت عن العرب شيئا، وسوف نرى تلبس اليهود في التاريخ الأوروبي منذ العصور الوسطى بشكل واضح. ويظهر هذا من كثرة القرآئن التي سنوردها في هامش هذا البحث. والفرضية التي نحاول أن نبرهن عليها، أو بتعبير أكثر دقة، ما نشير إليها: هل يمكن أن نعتبر اليهودي المتجول في طول العالم وعرضه، كالمعنى الذي يبحث عن نص يسكنه، وحيّز يتحرك من خلاله، ليحصل على المزيد من الطاقات ولربما ينحرف هذا المعنى بالنص إلى الدرجة التي يريدها وتخدم وظيفته وتحقق اهدافه وغاياته؟وفي هذا المناخ لم يعد من نافل القول السؤال: ما هو دور اليهود في بعث وإثارة الحروب الصليبية بين أوروبا وبين الممالك الإسلامية؟ وهل من الصعب توظيف أوروبا القرون الوسطى، لصالح اليهودية، بينما هي تستطيع توظيف اوروبا والولايات المتحدة في حروبها الحالية ضد العرب والمسلمين؟.

اليهودية بين عالمية الإطار وعنصرية المعنى:

إن الدارس لتاريخ الحضارة نشؤوها وانحطاطها ومن ثم انهيارها، وقيام الأمم تبعا لذلك وانحلالها يرى أن هناك أمما قد أشادت حضارات ومدنيات قديمة وأقامت إمبراطوريات عظيمة وقوية استمرت مئات السنين، ولكنّ تلك الامبراطوريات تلاشت واندثرت ولم يبق من آثارها غير الدلالات التاريخية الأثرية التي تستخرجها عمليات التنقيب والحفريات من بواطن الأرض، والتي تشير وتدل على قيام مثل هذه الحضارات. بينما شعوبها وأممها قد ذابت في غيرها من الأمم اللاحقة وساهمت في بناء حضارات جديدة، لا تحمل طابعها الخاص وتوقيعها الذاتي، وانما أضافت جهودها إلى جهود غيرها من الأمم في بناء تلك الحضارات، وكأنها تحيا في نطاق عالمية الإطار وشمولية المعنى، ولهذا تذوب الأمم وتنصهر في غيرها لتولد من جديد في عنصر جديد، بشخصية إنسانية جديدة لتقيم وتساهم في حضارة إنسانية جديدة، كامتداد للحضارات السابقة، وهذه الحركة التاريخية الحضارية تتميز:

١. الإطار الجغرافي والزماني، (الزمكاني)، الذي يضم أمة من الأمم فتتشكل بمقتضى الإتساع الجغرافي بملامحها الخاصة من حيث المظهر والشكل، بينما المعنى والمحتوى تجري فيه مفاهيم الحضارة ومعاني المدنية التي تشاد في هذا الإطار من وقت لآخر على إتساع التاريخ مع الإضافة الخاصة الذاتية للأمة التي تقف وتعيش في تلك الفترة الزمكانية المحددة ولهذا يمكن أن نرى ان المعنى الحضاري متحرك في نطاق هذا النص الزمكاني، فالشعب المصري، على سبيل المثال – قد شيّد الحضارة الفرعونية القديمة، ثم ساهم في تشكيل وهضم الحضارة الرومانية والإغريقية، ثم استقر بعد الفتح الإسلامي، على حضارة الإسلام. وإذا كان المكان والزمان هو الإطار الذي يتحرك فيه الحدث التاريخي على اتساع الحياة، فإنه لا يعرف الفراغ إلا في حالات استثنائية عند المنعطفات التاريخية حيث يمكن أن تتدفق المعاني الحضارية إلى حياة تلك الأمم من خارجها.

٢. والإنسان ببعده المادي، يمثل وضعا جيو- زماني، تتحرك فيه معاني الحياة المختلفة، فإذا كان هذا الإنسان في لحظة زمنية محددة مليئا بالمعاني الحية الفعالة استقام أمره. وإذا فرغ من ذلك، فلا بد أن تتدفق إليه معان جديدة تملأ الفراغ الذي حصل. وبمقتضى هذه المعاني الجديدة تتشكل الحضارة من جديد في تطور مستمر.

٣. والمعاني المتحركة في الإنسان، إما قيما ثابتة لا تتغير، وإما سلوكيات يومية تلقائية غريزية تخضع لتغير الظروف. وأما القيم الثابتة كالعقائد فهي التي تحافظ على خصوصيات هذا الإنسان حتى وهو ينتقل من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر، سواء كان ذلك بمحض اختياره أو تحت ظروف قاهرة اضطرارية. وهذه العقائد ومنظومة الأفكار إما أن تكون ذات أبعاد إنسانية كلية، وإما عقائد وأفكار انغلاقية ترفض التعامل والتفاعل مع «الغير». فاليهودية مثلا كعقيدة، بقيت محصورة ومتداولة في نطاق العنصر بشكل رئيسي وأساسي. ولهذا لا تجد في اليهودية جهاز دعوة ودعاة أو هيئات تبشيرية تدعو للدين اليهودية بشكل ملحوظ كما هو الحال في الإسلام والمسيحية. ويكفي أن تعريف اليهودية ما زال يتأرجح بين تفسيرات واجتهادات عديدة، فمنهم من يحصرها فيمن ولد لأم يهودية، ومنهم من يوسعها حتى تشمل من يدخل فيها ويعتنقها، وبعضهم مثل بروفسور درور، في كتبه الأربعة التي تحمل «نصائح لرئيس الحكومة» يرى في نصائحه الثلاث عشرة فيما ينبغي أن تفعله الدولة اليهودية داخليا في الخمسين سنة القادمة أن تجبر المقيمين الدائمين من العمال الأجانب وذرياتهم على قبول اليهودية شريطة أن لا يُقبل يهودية المسلمين من بينهم (١).

ولهذا نرى أن الشعوب التي تؤمن بعقائد معينة ثابتة، عندما تتعرض لصعوبات واحتلال، أو تهجير، مع مرور وتعاقب السنين تذوب في غيرها من الحضارات أو تنصهر في قوميات وأمم أخرى مُشكلة ومُدخلة بعضا من عقائدها وأسلوب حياتها إلى أعراف وتقاليد وأنماط الحياة للأمم الأخرى. ولهذا نرى أن هذا الإنسان يعيش ضمن الإطار الجغرافي العام ويندرك ضمن المعنى الإنساني القابل للتغيير والتعديل. وليس كذلك إنسان العقيدة والدين الذي يحاول المحافظة على خصوصياته المتميزة طالما بقي مؤمنا بتلك العقائد سواء كان هذا الدين يتسع للإنسانية جميعها، بحيث يشتمل عليها فيعايشها أو يساكنها ويحاورها ضمن معادلة مشتركة لهذا الكل الإنساني، أو كان دينا خاصا منغلقا على ذاته وقاصرا على ذاته وعلى معتنقيه، حتى وان كان من الصعب وصفه بالدين. وهذا من بين الأسباب الرئيسية، بل قد يكون السبب الرئيسي الذي جعل اليهود يحافظون على خصوصياتهم العنصرية وهويتهم اليهودية آلاف السنين وهم أقليات تسكن جميع أطراف

الأرض، فقد حافظوا على العنصر اليهودي متميزا على الرغم من المحن والصعوبات التي مروا بها. بينما شعوبا أخرى أقامت حضارات وبنت مدنيات وسيطرت على مناطق جغرافية كبيرة جدا لفترات تاريخية طويلة قد تلاشت وانحلت وذابت وانصهرت في غيرها من الأمم والشعوب على مدار التاريخ كالأشوريين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين والفرعونية وغيرها من حضارات العالم.

صياغة الدور اليهودي من جديد - دور الدولة في مقابل دور اليهودي المتجول:

يرى يهوشواع (٢) بأن دور اليهودي المتجول أن يقدم للعالم المعرفة و «القيم» ورسالته «الأخلاقية» وهو «الضوء بين الأمم». فعلى الرغم مما قاساه اليهود على أيدي النازي ظل بعض القادة الروحانيين والفكريين اليهود يصرون على أن هناك مهمة للشعب اليهودي بين الأمم، وان قدرهم الوحيد يكمن في أن يبقوا «الضوء بين الأمم» و «الشعب المختار» مما جعل مثقفا علمانيا مثل غيرشوم شولم يقول في إحدى مقابلاته، الجملة الإشكالية والاستفزازية التالية: «إذا كانت إسرائيل كبقية الدول والشعوب الأخرى في تصرفاتها فسوف تكف عن الوجود في القرن القادم» (٣).

ويرى يهوشواع ان الحديث عن الدور والمهمة اليهودية المنوطة ب «الشعب المختار» و «الضوء بين الأمم» يمكن أن يستمر، إذا ما استطاع العقل اليهودي، إدماج القومية بالدين لدى الشعب اليهودي، وهي على الرغم من إشكالياتها تبقى الجواب الوحيد بعد قيام دولة اليهود على تكريس رسالة اليهودية التاريخية.

والخاصية الإنسانية الكونية لليهودية في نظر يهوشواع مشروطة بتخلي الإنسان عن هويته الدينية والقومية معا، لذلك هي كونية متحيزة تعاني من خلل. ولتعويض تحيزها ونواقصها، وضع الشعب اليهودي على عاتقه غاية ومهمة تجاه العالم بأسره، العالم المرفوض بدرجة معيّنة. والتعويض المقدم نوع من العرفان مقابل القداسة الحصرية أي التحيّز في دولة معينة التي يطلبها الشعب اليهودي لنفسه، أي: «سأكون ضوءًا بين الشعوب لأنني لا أملك القدرة ولا الارادة على قبول الجميع». وقد تنازل اليهود عن هذا الدور وهذه المهمة، «الشعب النموذجي» و «المختار» مقابل الحصول على طمأنينة الاستقرار، كبقية الشعوب في أرض تخصنا، والتحول إلى أسياد لمصيرنا، نطلب السيطرة

على مصيرنا، على أفعالنا، ونحن بهذا المعنى كأي شعب آخر يعيش في بلده، بمقتضى سيادته الخاصة، ولا نطلب الاختلاف عن الآخرين. وهكذا يرى يهوشواع كغيره من الصهيونيين بناة الدولة اليهودية، تهافت فكرة «الوظيفة المقدسة» لليهودية التي يدافع عنها الفيلسوف اليهودي الألماني هريمان كوهن، ويطلق عليها يهوشواع «البلاغة الخطابية». وقد اكتشف هذا الأخير كغيره من بناة الصهيونية إن «الأخلاقية العالية» التي كانت مصدر فخرنا في «المنفى» كانت إلى حد ما بلاغة خطابية، يمكن العثور عليها في بطون الكتب والموسوعات فقط، بنصوصها الجميلة، وليس في الأفعال أو في الواقع. فلم نكن قد اكتشفنا آنذاك، اقتصاد الاكتفاء الذاتي الأخلاقي الخاص بنا، لم يكن لنا جيش خاص بنا، لم نسيطر على أقليات.. ولهذا فقد جعلنا التخلي عن «البلاغة الخطابية القديمة» نرى صورتنا عن أنفسنا في واقع الحياة بأكثر دقة. ولهذا فإن في التخلي عن دورنا ومهمتنا ووعينا بمهمتنا «الأخلاق العالية» خاصة عندما يكون التخلي لصالح الانزلاق نحو غفران ضيق الأفق للذات القومية. فقد تعلمنا من تجاربنا الفردية والجماعية ان الذي يعطي الآخر يصبح أكثر قوة في عطائه. كالولايات المتحدة التي لا تشكل أكثر من ٥٪ من سكان العالم ولكنها الدولة القوية لأنها تعطي وتمنح الغير..» [٤] وهكذا فإن المرآة التي ينظر من خلالها اليهود إلى صورتهم والى صورة الولايات المتحدة وعلاقاتهما بدول العالم وكذلك المنطق الذي يفكر فيه اليهود تجعلهم يرون ويفكرون بما يعطونه للغير فقط ولا يرون الأضعاف المضاعفة التي يأخذونها من هؤلاء «الأغيار». لا يرى اليهود تلك الإمبراطورية اليهودية العالمية التي تنتظر الظهور والعلانية في مجال الاقتصاد والسياسة والإعلام التي تتحكم في هذا العالم، لا يرون الذراع الأمريكي التي تطول كل نواحي الأرض سلبا ونهبا. وكذلك لا يرى يهوشواع، ولا أقرانه أن الأمر المتواضع الذي يطلبه، أن يعيش في أرض خاصة به كغيره من الشعوب، غير متوفرة بغير عدوان على شعب آخر، فهو يقيم أمنه واستقراره على حساب أمن وتشريد شعب آخر. كيف تستقيم هذه مع رسالته «الضوء بين الأمم» «والشمعة التي تحترق لتضيء على الآخرين»؟.

ويرى يهوشواع أن تبادر الدولة اليهودية في تشكيل فيالق تطلق عليها «فيالق التربية والتعليم» على غرار «فيالق السلام» التي سبق أن شكلها الرئيس الأمريكي جون كندي في

مطلع الستينات من القرن الماضي، يرسلونها الى دول العالم الثالث المختلفة والمتخلفة، فتعلمها كل شيء: اللغات، الكيمياء، الرياضيات، الكمبيوتر، الطب، الاقتصاد والموسيقى ولن تكون هذه مهمة دولة إسرآئيل فقط بل سينضم اليها يهود العالم، ويصبح هناك نوعا من التنافس على تقديم هذه الخدمات بين إسرائيل كدولة وبين يهود العالم. وهذا سوف يعيد الثقة التي اهتزت وضعفت، بين بعض اليهود الذين اعتزلوا إسرائيل في السنوات الأخيرة عندما شعروا فيها بالضيق والإحراج الخلقي من ممارسة إسرائيل للأنانية القومية المنافقة. وسوف يثق هؤلاء الضعفاء والفقراء من الشعوب الفقيرة بمثل هذه المعونات «لفيالق التعليم» والتي لا تخفي وراءها أطماعا اقتصادية وسياسية وعسكرية» (٥).

تمرد المؤرخين الجدد على تسييس المعرفة للتاريخ من قبل المؤرخين القدامى:

إن إعادة مراجعة تاريخ الدولة اليهودية الحديثة بعد فتح بعض الملفات من الأرشيف التاريخي بعد مرور الوقت الكافي جعل طائفة من المؤرخين «الجدد» من بين اليهود من أمثال «بيني موريس، وإيال كفكافي، وايلان بابيه، وأمنون راز - كركوتسكين» ينتقدون السياسة الاسرائيلية ويحملونها مسؤولية تضييع بعض فرص السلام والتسوية السياسية للنزاع العربي الإسرائيلي التي كانت على ما يبدو متاحة في عدد من المناسبات. وهذا الرأي والتوجه الجديد في فهم وتقييم الممارسة الواقعية للدولة اليهودية جاء مغايرا ومختلفا للموقف الرسمي الرائج الذي يرى أن المجتمع الإسرائيلي هو مناصر للسلام، وهو مكره على خوض صراع عنيف فرض عليه وليس من «خيار آخر» أمامه مثله كالحمامة التي اضطرت أن تحمل حربة رغم أنفها، كما ورد في عنوان كتاب لأنيتا شبيرا: «حربة الحمامة: الصهيونية والقوة ١٨٨١-١٩٤٨» (منشورات «عام عوفيد» (الشعب العامل) تل أبيب ١٩٩٢).

وكذلك يرى هؤلاء «المؤرخون الجدد» إن إسرائيل تتحمل مسؤلية كبيرة في نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، عقب سياسة التشريد التي اقترفها قادة حرب كبار في صراع وحرب ١٩٤٨ بتشجيع خفي، أو الموافقة من خلال الصمت من طرف المستوى السياسي الأعلى. وكذلك في القانون المبني على سياسة «منع العودة» للاجئين الفلسطينيين الذين هُجروا من وطنهم والتي اعتمدتها السياسة الإسرائيلية وما زالت (٦). وكذلك يرى هؤلاء المؤرخين ان

المسؤولين الإسرائيليين مارسوا سياسة المغامرات العسكرية التي أدت إلى توتر الوضع ثم حدوث حرب ١٩٥٦ الزائدة. هذا التشدد الذي كان يتبناه بن غوريون خلافا لموقف موشه شاريت الأكثر اعتدالا.

ويرافق نظرة هؤلاء «المؤرخين الجدد» موقف مماثل «لعلماء الاجتماع الانتقاديون» والذين تمحورت علاجاتهم حول الفترة العثمانية والانتدابية لبريطانيا. وقد أجروا تحليلات موازية عرضت الاستيطان الصهيوني في فلسطين بوصفه مشروعا كولونياليا من الاحتلال والسلب والنهب. وهذا الموقف يعارض التوجه الذي يتبناه التيار المركزي في العلوم الاجتماعية الإسرائيلية، الذي يرى «الاستيطان اليهودي» من منظور «التطور الثنائي» واحدا بمحاذاة وملاصقة «الآخر» اليهودي إلى جانب الفلسطيني، مجتمع فلسطيني عربي متخلف بدائي، والى جانبه مجتمع يهودي عصري متطور. يمثل هذا التيار علماء الاجتماع (شموئيل نوح، وايزنشتادت ودان هوروفيتش وموشيه ليسك) وهناك تيار اجتماعي ثالث من علماء الاجتماع يؤكد على نشوء ثقافة عسكرية وتطوير روح قتالية في إسرائيل تسهم في استنساخ الصراع والعمل على استدامته كما يرى ذلك أمثال (باروخ كيمر لينغ واوري بن اليعيزر) وجميعها تنتقص، بطبيعة الحال من صورة إسرائيل المدنية والمناصرة للسلام. كما أن بعض علماء الاجتماع يؤكدون على ظاهرة الاحتكار القوي من جانب متخلمات حركة «العمل» بما يتعلق بسياسة الوطن والعمل والتعليم والرفاه الاجتماعي والتي تظلم الأقلية العربية وتهمش دورها ومنهم (هنري روزنفيلد، وشولميت كرمي، وزئيف روزنهوك وميخائيل شليف، ورؤوبين يفتاحئيل وماجد الحاج) أو بالنسبة لحكم ووضع الجماهير العربية التي تتمتع بمواطنة جزئية في ظل ديمقراطية أثنية (سامي سموحة وايان لوستيك ويوآف بيلد وعزمي بشارة) (٧).

وبغض النظر عن مختلف الدلالات العالمية لهذا النقاش الدائر بين المؤرخين وعلماء الاجتماع، فإن النقد التاريخي في الحالة الإسرائيلية يمكن تجسيده بشكل ملموس، خاصة في أحد جوانبه الأكثر إثارة، وهي ما يمكن أن نطلق عليه «العقد الغوردية» القائمة بين السياسة والمعرفة، خاصة في سياسة المعرفة التاريخية في إسرائيل في سنوات التسعين من القرن العشرين، ومصطلح «سياسة المعرفة» الذي قد يساعدنا في توضيح الرابطة بين

النص والقرينة في نقاش المؤرخين في إسرائيل يمثل تجسيرا بين ...
للمعرفة والهوية. وهو تجسير موجود دوما غير أنه منكر دوما.

والإدعاء الأساسي الكامن في مصطلح «سياسة المعرفة» بما أنه دراسة الإنسان والمجتمع، فلا وجود لإنتاج ونشر واستيعاب المعرفة في منأى عن التموضع ضمن وجهة نظر اجتماعية، وقد انتشر الوعي بهذا الإدعاء في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، فشمل أوساط جيل كامل من المثقفين، الذين يرون أن سياسة الهوية وسياسة المعرفة ومرتبطتان ببعضهما البعض. كما عرف هذا اللون من الارتباط بين «سياسة المعرفة» والتموضع في النصف الأول من القرن العشرين في التفسيرات الماركسية، وكذلك في مذهب مدرسة فرانكفورت، وبعث في عقد الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي في صياغة ميشيل فوكو «ما بعد البنوية» أو في صياغة ما «بعد الكولونيالية» لإدوارد سعيد(٨).

وفي السجال الدائر بين المؤرخين «القدامى» في إسرائيل والذين يمكن اعتبارهم مجندين من قبل السياسة الرسمية الإسرائيلية والأيديولوجية الصهيونية في تناولهم لموضوع كتابة التاريخ بمقتضى النص الرسمي التبسيطي حتى لا تعرض السياسة الإسرائيلية لفهم سلبي من قبل «الآخر» وبين تلك الفئة الوسطى «القدامى- الجدد» وهم الذين يكتبون بصيغة أقرب الى المهنية الأكاديمية التجميلية ولكنها تنبع ولو بلا وعي منها، منهجا تبريريا في مواضع بحثهم. وبين المؤرخين «الجدد» وممثلهم بيني موريس والذي يعتبر تحديه للبحث التاريخ في إسرائيل واحدة من أكثر المراحل أهمية في سيرورة الحوار التاريخي العلمي الإسرائيلي، ومع ذلك فإن ما كان مثيرا في حينه، جدير اليوم بالاستيضاح والتعديل، وهذا ما بدأ بإنجازه مؤخرا المؤرخ الجرىء «الجديد» آلان بابيه، ذلك أن التعبير الحاصل في مناخ علم التاريخ الإسرائيلي أكثر شمولا وجوهرية مما يصفه موريس (٩). وميدان الاختلاف هو حول «الثقافة الصهيونية- العبرية» والنظرية المركزية هنا طرحها أمنون راز- كركوتسكين الذي يرى أن حجر الزاوية في تشييد الهوية: «الأرض- إسرائيلية» وكان قد حشر التاريخ والثقافة الإسرائيلية على تشكيلاتها المتعددة في شرنقة الخطاب السائد للصهيونية بشأن نفي «الشتات» (الدياسبورا) والتخلص من اسقاطاته، وتوكيد مركزية «أرض اسرائيل» ولهذا كان محك التصور الذاتي الإيجابي في نظر

الصهيوني هو في مدى تعارضه مع التصور السلبي لليهودي. وأدى هذا التمركز في فلسطين في قراءة بعض المؤرخين، إلى أن لا تحرك قيادة «اليشوف» (الاستيطان) ساكنا عند وقوع كارثة الهولوكست، وبدل أن تصب كل جهدها في إنقاذ اليهود، واصلت التركيز على «بناء البلاد» (أنظر شبتاي بيت تسفي، ويوسف فرودزينسكي وتوم سيغف) هذا الزعم يحاول أن يفنده التيار المركزي في علم التاريخ والذي يبرر ذلك بما أصاب القيادة من بُكم ومشاعر عجز وتقصير (حافا اشكلولي- فاغمان ويهودا باور وشبتاي طيفت. وغيرهم) بينما يؤكد موقف آخر إنه جرى في إسرائيل استغلال ذكرى الهولوكوست بصورة نفعية مصلحية، وتم توظيفها سياسيا من أجل الحصول على العطف العالمي ولهذا فقد عرضت فقط من زاوية «عبرتها» الصهيونية، وذلك على حساب التماثل الإنساني مع الضحايا، وعلى حساب استخلاص العبر الكونية (انظر دان دينر، وهنري فاسرمان وعيديت روزنطال وروت فيرر وموشيه تسوكرمان) (١٠).

وكا هو الحال في موضوع العرب الفلسطينيين، فهكذا أيضا في موضوع اليهود الشرقيين وفي موضوع يهود أوروبا، حيث يعارض علم الاجتماع الانتقادي والمؤرخين الجدد الرواية المألوفة للمجتمع الإسرائيلي، وهي الرواية التي توجزها مقولات: «شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب» و «ليس ثمة من نتحدث إليه» و «كل إسرائيل مجتمع تكافلي» وبدل «كل» تطرح رواية المصلحة الذاتية «لليشوف القديم» (الاستيطان) حيال «اخرين» انتهبت أرضهم واقتلع الغالبية من أرضهم والقى بهم في العالم الضيق على سعته الذي لم يتسع لهم، ولم يعترف بهم.

وهذا يؤكد لنا أننا لسنا أمام موضوع أكاديمي صرف، وانما أمام حدث في ميدان الثقافة السياسية العامة في إسرائيل، إذ تتعرض للتعرية واحدة في أثر أخرى، مجموعة «الطباع الإيجابية» ومجموعة «الأساطير» المؤسسية للمجتمع الإسرائيلي، الرسمية والشعبية والدراسات البحثية سواء بسواء. ويختل بذلك تصوره الذاتي كمجتمع مناصر للسلام والمساواة والأخوة، وهكذا إذا تمّ وضع كل ذلك في السياق السوسيو- بوليتي الأوسع والأشمل فإنه يثبت دعوى بأنه يعكس مواجهة متجددة حول تعريف الهوية الاسرائيلية. بكلمات أخرى فإن نقاش المؤرخين هو تعبير عن حوار ساخن بل معركة تدور حول تحرير أو

إحتلال الذاكرة الجماعية في إسرائيل، معركة من شأنها أن تؤدي إلى بديل مرتقب في مضمار تعريف الهوية الإسرائيلية (١١)، وسوف نرى إن كان باستطاعة تيار «النقاد الاجتماعيون» والمؤرخين «الجدد» إزالة طبقات الركام من داخل النفس اليهودية لتجعلها ترى الطرف الآخر للمعادلة في الصراع الدائر بين الشعب اليهودي والشعب الفلسطيني بحيث يرى الحقيقة التاريخية كما هي في الواقع، وجود متراكم ومستمر لآلاف السنين يحاول مشروع تسييس العلم الذي يتبناه العقل اليهودي من نفيه وتصفيته وإبطال معالمه، إن هؤلاء «النقاد الاجتماعيون» و«المؤرخين الجدد» يعتبرون طفرة الضمير اليهودي.

الطرح الصهيوني الاستيطاني والخطاب التحريضي:

يتضح لكل من يحاول أن يدرس الحركة الصهيونية وأيديولوجيتها السياسية من غير أن يضطر في التنقيب والبحث، انها قائمة وتستمر كأداة للدفاع وبالأحرى كرد فعل للدفاع عن ملاحقة اليهود واضطهادهم والعمل من أجل رفع المعاناة مما لحق بهم في أوروبا خاصة. ولذلك فإن دوافعها وخلفياتها عدائية في تناولها «للغير». وكذلك فان خطابها ومنطقها تحريضي ضد «الجوييم» كل ما هو غير يهودي، وذلك من أجل تكتيل اليهود، وبذر الشكوك في نفوسهم ضد «الغير» ولو كان هذا الغير هي المجتمعات التي آوتهم وعاشوا بها مئات السنين. وتعمل الصهيونية في تثقيفها الداخلي والذاتي على خلق أجواء من انعدام الثقة بين الطرفين -- الطرف اليهودي والشعوب التي يعيشون بينها - هذا التثقيف يساعد على خلق مركزية لنواة يهودية من جهة وبالتالي محورتهم حول الذات، وحول أهداف الحركة الصهيونية والتي تقمصت دور فكرة «همشيحيت» (عقيدة الخلاص التي تنتظر عودة السيد المسيح المخلص) مع الفارق كونها حركة سياسية علمانية في توجهها العام. وكنتيجة لذلك ترى اليهودي يحاول دائما الحصول على جنسية مزدوجة، تعبر عن انعدام الثقة في مواطنته الأصلية في البلاد التي يعيش بها.

وقد يفهم المرء أن يكون هناك إنجليزي علماني، أو فرنسي أو عربي ولكن وجود يهودي وعلماني بمعنى - لا ديني - وغير مؤمن فهذه حالة تعاني من تناقض بنيوي بين النص والمعنى في مصطلح «اليهودية»، وكل هؤلاء المفكرين من بين اليهود الذين يحاولون صب

معانٍ قومية في المصطلح «اليهودي» هي في النهاية محاولات غير مفهومة وغير مبررة، وهي نوع من هندسة المصطلحات غير الموفقة لأنها تحاول أن توجد قولبة جديدة تضم بداخلها مفاهيم متعارضة وغير متجانسة. هذا قالب تتحرك فيه معان متقاتلة متخاصمة تغذيها حرب أهلية بين الديني المحض الذي يراد أن يحوي بداخله مفاهيم غير دينية، بل لا دينية. فكيف اذا كان هذا النص أو القالب الديني يسكب فيه مفاهيم متعارضة ومتغايرة ثقافية واجتماعية وسياسية كمصطلح «اليهودية التي تسكن بقاع الأرض المختلفة؟ وإذا ما رغب العربي، الفارسي أو الفرنسي، على سبيل المثال، أن يعتنق اليهودية كدين فهل عليه أن يطلق قوميته ويخرج عن هويته القومية؟ وهل بالإمكان أن تكون هناك حالة نصف يهودي؟ أو يهودي بشروط؟ ولهذا فإن كل المحاولات التي تجتهد لتجد تفسيرا لليهودية كدين وقومية في آن واحد، لن تنجح قطعيا! في واقع الأمر هناك ديانة يهودية والى جانبها قومية إسرائيلية، وكل اجتهاد المفكرين الصهيونيين لن ينجح في هندسة قالب يحوي هذه المتناقضات. فبنو إسرائيل هم الذين انحدروا من نسل يعقوب، عليه السلام، الذي لقب بإسرائيل. وأما المنتسبون لليهودية فشيء آخر، هم كل تلك الأقوام الذين اعتنقوا اليهودية كدين، كمعتقد ومناسك وطقوس. وبهذا يمكن أن نفهم، الحركة الصهيونية على أنها حركة سياسية أبدعها وأنتجها العقل اليهودي ليستخدمها آلية من اجل بناء دولة. وبعد قيام دولة إسرائيل فمن التناقض أن تتحول هذه الدولة من هدف للصهيونية لتصبح وتتحول إلى أداة وآلة بيد الصهيونية لتحقيق توسعاتها الاستيطانية الكولونيالية في المنطقة. فإن كان من الممكن إيجاد تسوية سياسية للنزاع العربي الإسرائيلي، فمن غير الممكن إن لم يكن من العسير أن يتعايش العرب كل العرب مع المشروع الصهيوني، فالمشروعان العربي والصهيوني كمفهومين متغايرين لا يتسع لهما نص واحد. وما لم تتم عملية فك الارتباط ما بين الدولة الإسرائيلية (اليهودية) وبين الحركة الكولونيالية الصهيونية، وتتمكن الدولة الإسرائيلية من أن تتخذ قراراتها وتصوغ سياستها بمقتضى مصلحة سكانها فقط، فلن تتم تسوية سياسية بين العرب وإسرائيل. لأن البلهاء والحمقى فقط هم الذين يعقدون اتفاقا ما أو سلام مع من لا يعترف بهم ولا بحقوقهم ولا بملكتيهم لأراضيهم، وهذا ما يعلنه الكثير من المفكرين اليهود، كما يتضح ذلك من كتابات بروفيسور يحزقيئل درور في مجموعة كتبه

الأربعة تحت عنوان: «نصائح لرئيس الحكومة»، حيث يؤكد بروفيسور درور على صهيونية الدولة، وان الدولة آلة صهيونية، وأن الصهيونية لم تحقق كل أهدافها (١٢)، فماذا يعني كل ذلك؟

من أجل ذلك فإن المصلحة العربية والمصلحة الإسرائيلية تحتم أن يمتلك الطرفان إرادة مستقلة، وقرارا مستقلا، وخاصة الطرف الإسرائيلي، بل أن المصلحة العربية تلتقي مع اجتهادات الكثيرين من هؤلاء «المؤرخين الجدد» وكذلك النقاد الاجتماعيين والذين يخوضون معركة حقيقية في اتجاه فك الارتباط بين الحركة الصهيونية وبين المجتمع الإسرائيلي. والأقلية العربية في إسرائيل ينبغي أن تكون جزءا نشيطا وفعالا في هذا الطرح، وصياغة وتشكيل هذا الاتجاه وتعميقه وإرساء دعائمه، مصلحة إسرائيلية وعربية وشرق أوسطية وبالتالي عالمية.

منذ أن كانت فلسطين، أو أيا كان اسمها عبر التاريخ، لم يحدث أن عانت من فراغ ونشاط إنساني على ظهرها، فكيف حدث أن فرغت من أهلها في النصف الأول من القرن العشرين؟ كيف يستسيغ العقل مقولة كهذه؟ «أرض بلا شعب، ليهود بلا أرض» أحقا هذا حصل؟ يا من يعتبرون أنفسهم «نور الأمم» و «النموذج المختار»؟ بعضا من هؤلاء الذين ولدوا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ما زالوا أحياء، يروون حياتهم فوق تراب فلسطين، أين عاش هولاء وترعرعوا؟ بأي أرض وتحت أي سماء؟ أتكون كذلك وعلى هذا النحو رسالتكم للبشرية؟ وهل وصل مشروع تسييسكم للعلم حدًا كهذا؟

نحن إذ نبارك الاتجاه الجديد «للمؤرخين الجدد» و «النقاد الاجتماعيين» ولكن ما زالت حركتهم في نطاق التشكيك بصحة الرواية الرسمية الإسرائيلية ودون الحد الأدنى من الاقتراب إلى الحقيقة الموضوعية. ما يزيد عن ٤٢٠ قرية هدمت وسويت في الأرض وقتل بعض أهلها وشردوا وأخرجوا من قراهم ومدنهم بأمر من القادة العسكريين فقط؟ أو أن المسؤولين السياسيين قد صمتوا عن ذلك؟ (١٣) أهذا كل ما في الأمر؟.

الحقيقة التي تصرخ بأوضح بيان، وأتم حجة تقول أن ما من حجر هدم في بيت صغير من قرية صغيرة إلا والقيادة السياسية والعسكرية تعلم بها وأمرت بها، بل باركتها وأثنت على القائمين بها نحن ننتظر صحوة الضمير، حتى يعترف بالخطأ والشعور بالذنب مما

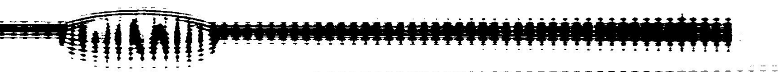
اقترف من ظلم بحق الشعب الفلسطيني وما زال يمارس ضده الظلم... ان الاعتراف بذلك ستكون الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح من أجل بناء الثقة وإيجاد حل صحيح لهذا النزاع، ونهاية سلمية لهذا الصراع الطويل والمعقد. والصراعات المعقدة لا تحل إلا بتفكيكها إلى مركباتها وعناصرها الأولية، ومحاولة علاج أطرافها الأيسر فالأيسر، ورفع المعاناة عن الإنسان أولا، ورد الاعتبار إليه مسؤولية أخلاقية وقيمية قبل أن تكون سياسية. ولا أدري «رسالة» تصف نفسها على أنها «الضوء بين الأمم» يمكن أن تكرس جهودها من أجل سحق شعب أعـزل، لا لشيء، الا أن يقـول: هذا وطني، هذه أرضي، هذا بيتي، وبيت آبائي وأجدادي؟ وهل من الأخلاق أن ينكر المرء انتماءه وذاتيته؟ وهل من رسالة «نور الأمم» أن يصبح الراب عوفاديا يوسف الناطق الرسمي للممارسات الصهيونية؟ ويصبح هذا الشعب الفلسطيني عبارة عن أفاعي ينبغي قتلها والتخلص منها؟ وهل استطاع عوفاديا أخيرا أن يحل شيفرا هرتسل بعد مئة سنة حين قال نبي الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر، حين أعلن أن الطلائعيين الصهيونيين الأوائل ذهبوا الى فلسطين لاصطياد الأفاعي»؟ حقا وبهذا يستحق أن يكون عوفاديا يوسف «النور الهادي للبشرية " ؟.

قراءة في اللامكتوب للدور اليهودي التاريخي:
تعرية الطبقة الجيو - تاريخية الثالثة:

في عالم النباتات، هناك نباتات تعيش وتقتات على النباتات. وفي عالم الحيوان هناك من يقتات من عالم النبات، وهناك من يعيش على لحوم الحيوانات، وهناك الإنسان الذي يعيش على النبات والحيوان معا، وهناك من يقوم على تسخير الإنسان والتغذي من جهده ونشاطه.

وفي عالم الصناعة، هناك صناعة يدوية، يفرغ فيها الإنسان طاقته الإنتاجية بالجهد المباشر، وهناك صناعة متطورة تنتج فيها الآلة الأكثر تعقيدا من غير مشاركة بشرية مباشرة، والذي يحرك تلك الآلة المعقدة التي تنتج غيرها، هو عقل هذا الإنسان وإبداعه. وفي المرحلة الأخيرة هناك عقل تلك الآلة المعقدة وموجهها والمتحكم بها وبمنطقها.

فعندما كانت تصر إسرائيل على بناء طائرة «الليفي» المتطورة والتي تبلغ تكلفتها المبالغ الطائلة الباهظة لكي تنافس الطائرات الحديثة خاصة الأمريكية، فقد أثر اتخاذ القرار



النهائي في الأحجام عن هذا المشروع عوامل كثيرة أهمها:

١. التكلفة الباهظة لهذا المشروع الكبير.
٢. صعوبة وكثرة التكاليف لصيانة هذا المشروع واستمرار تطوره.
٣. الطاقة الإنتاجية المحدودة التي لا تستطيع أن تنافس المشاريع العملاقة في دول ذات خبرات وموارد وأسواق استهلاكية كبيرة كثيرة.
٤. إغضاب حلفائها.
٥. إثارة الحافز في الإرادة العربية لإقامة صناعة شبيهة في ظل الصراع والمجابهة.
٦. الانشغال بهذا المشروع الكبير، وصعوبة حشد الطاقات المادية والتقنية لمثل هذا المشروع، وهذا كله سوف يتم على حساب التوسع في مشاريع أقل تكلفة ولكنها أكثر تطورا، كقوة التوجيه وإضافة عقل من أجل تحسين اداء الطائرات البديلة التي ستملكها.

وبالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية تم إلغاء هذا المشروع واستبداله بالطائرات الأمريكية المتطورة: اف ١٤، اف ١٥، اف ١٦.. وغيرها، بينما انصب الجهد الاسرائيلي على إنتاج عقول الكترونية وأجهزة متقدمة لتتحكم وتوجه هذه الطائرات الضخمة، وهكذا عن طريق استثمار جهد قليل ذا كفاءة عالية وتكلفات قليلة نسبيا تم ابتكارها و الإبداع بها عن طريق إنتاج أجهزة متطورة تتحكم بهذا الهيكل الضخم وتحسين اداء هذا الذي يسمى اف ١٥، اف ١٦ الخ. وهكذا تصبح الولايات المتحدة الكبيرة ذات القوى الإنتاجية الضخمة تنتج الطائرات والصواريخ الضخمة، وإسرائيل الصغيرة بإمكانياتها الذاتية المحدودة تنتج أجهزة صغيرة ولكنها بمثابة عقول تتحكم بتلك الصناعات الضخمة الثقيلة.

والعقلية اليهودية اشتهرت على مر التاريخ بالإبداع في مجال التنسيق وإنتاج المركب الثالث، فمن الموجود وحتى المطلوب ينتج الممكن وهكذا. وإذا كان الإنسان يتميز بالبعد الأخلاقي وبالإرادة والتفكير، فإن الإرادة لا يحصل عليها إلا من توفرت لديه الإمكانيات بانواعها ومن بينها المال الوفير وطرق تحصيله وإنتاجه، وأما التفكير فإنتاج ذهني وعقلي، وكلما كان هذا التفكير أرقى احتاج إلى فعل عقلي أوسع وأشمل وأقوى.

وعلى ضوء ذلك وبالاستناد إلى الحفريات المعرفية تحت السطح أو تحت القشرة المرئية

من الطبقة الجيوتاريخية الثانية لكثير من المفكرين اليهود والمقولات المتداولة «الشعب المختار» و «الشعب النموذجي» و «نور الأمم» أو «الضوء بين الأمم» و «الخطاب الأخلاقي الرفيع» أو «التمرين العقلي» الذي يطرحه بروفيسور درور ليضع على لسانه ما يفكر فيه وما هو موجود في قلب وعقل بروفيسور درور ذاته وما لا يستطيع التفكير به بصوت مرتفع أو مقروء: **Thinking on the unthinkable** لدور الدولة اليهودية المزدوج بل المتناقض كهدف وكذلك كآلية. فإن الضيف القادم من كوكب آخر لو أتيحت له فرصة دراسة التاريخ الإنساني والتاريخ اليهودي ونظر في مرآة عجيبة تعكس الماضي والحاضر والمستقبل، من غير أن يهتم بموضوع الحياة القصيرة لجيل أو جيلين، فسوف يستنتج هذا الضيف من العالم البعيد إن مهمة الشعب اليهودي هو إبداع أفكار روحانية مهمة للجنس البشري مقابل تضحياته باستقلاله السياسي. ولهذا في عين القادم من بعيد يمكن لدولة إسرائيل، بل الأفضل لها أن تنهار بعملية ذاتية إذا كان ذلك سيحدث زلزالا يؤدي الى إنتاج كبير من نوع الإبداعات الروحية التي قدمها الشعب اليهودي للبشرية عند خراب الهيكل الأول والهيكل الثاني. وقد يفضل إمكانية أن تكون شمعة تضيء في السماء من جديد على قيامها كدولة يهودية عادية كباقي دول «الأغيار» (الجوييم) والتي ينقصها مفهوم روحاني عالمي. وعلى ذلك فإن القادم من كوكب آخر سوف يرى ان قيام دولة إسرائيل ما جاء إلا لتستخدم كعود ثقاب يشعل إنتاجاً روحياً من جديد بواسطة إحراق ذاته»[١٤].

هذا التمرين العقلي الذي يورده بروفيسور درور على لسان قادم من كوكب آخر يقوله بعض المفكرين اليهود صراحة من غير أن يضطروا لاستضافة ضيف من عالم بعيد، وهذا يظهر الارتباك والحيرة في فهم الدور والمهمة اليهودية وما هو الأفضل لليهودية، الاستقلال السياسي بدولة تقتصر على طاقاتها وإمكانياتها أم المحافظة على دور اليهودي المتجول الذي يفتش عن نصوص يسكنها ومن ثم يتحكم بمقدراتها الكبيرة غير المحدودة؟ وكأن الدور اليهودي مهمته الأساسية ورسالته تتلخص في بعث ثورة روحية في العالم، وليست التحيز بدولة متحيزة بمكان وظرف محدد.

هذا الكلام وهذه الأفكار هي نفسها التي رد بها الفيلسوف اليهودي الألماني هريمان كوهين على مارتن بوبر، عندما طلب هذا الأخير منه الانضمام للمشروع الصهيوني بهدف إقامة

الدولة اليهودية، قال كوهين غاضبا ومعاتبا وساخرا: «هل نحن بحاجة الى ألبانيا جديدة في الشرق الأوسط»؟ وهكذا يتخلى اليهود عن مهمتهم في رعاية «الوظيفة المقدسة» لليهود في العالم. وقريبا من مثل هذا القول صدر عن غيرشوم شولم المفكر العلماني حيث يقول: «إذا استمرت إسرائيل في نهجها وحجم ونوع تطلعاتها كما هي عند غيرها من الدول والشعوب، فسوف تكف عن الوجود في القرن القادم (القرن والواحد والعشرين) (أنظر «الكرمل» عدد ٥٤ شتاء ١٩٩٨) [١٥].

وهذا أ.ب. يهوشواع يحاول أن يجمع بين «الوظيفة المقدسة» للشعب اليهودي وبين ما ينبغي أن تحمله «دولة إسرائيل» من رسالة إلى الناس جميعا ويقترح في هذا المجال، كما سبق أن ذكرنا «فيالق التعليم» التي ترسلها اليهودية لتعليم الشعوب الفقيرة والمتخلفة مجانا، لكي تستمر «الرسالة اليهودية» بل أن المفكرين اليهود وكذلك بعض الساسة يعملون على نشر مشروعات أخلاقية إلى برنامج الأمم المتحدة كمساهمة في دور اليهودي في موضوع الأخلاق.

وفي هذا الاتجاه كانت تصب كل انتقادات بروفيسور لايفوفيتش للسياسة الاسرائيلية وخلوها من عناصر «الرسالة اليهودية» وسوف نخترق بحفرياتنا المعرفية طبقة أخرى تكشف لنا بعض جوانب ومرتكزات المسالة اليهودية وهي خطوة اخرى بنفس الاتجاه اعمق وأشمل من تلك الأضواء والأنوار التي تمثل الطبقة الأولى والثانية من القشرة المرئية.

الرسالة اليهودية في مرحلة ما قبل سبي بابل ورسالتها بعده:

الرسالة اليهودية قبل سبي بابل كانت رسالة ربانية دينية، تدعو إلى دين الله منذ إبراهيم ويعقوب وإسحاق ويوسف وموسى، وحتى داوود وسليمان عليهم السلام جميعا- كانت دعواهم واحدة، وقد كانت حقا رسالة «أخلاقية» كانوا حقا «النور بين الأمم»، وأما الرسالة اليهودية الثانية، رسالة اليهودية في فترة ما بعد خراب الهيكل الأول وسبي بابل وانقطاع حبل الله الذي كان يربطهم، بعد أن تنكبوا دينه فقد أصبحت رسالة غير ربانية، رسالة لا دينية، ويمكن تسميتها رسالة فكرية وضعية. وجعلت العقل في مكان الوحي والشرع، وأقامت حربا مفتعلة بين الفكر والعقل وبين الوحي والشريعة، رفعت «الإنسان اليهودي» الى درجة التقديس، وأبطلت الإلهي.

رسالة اليهود الربانية منذ زمن إبراهيم وذريته حتى داوود وسليمان عليهم السلام، كانت دعوة «أخلاقية، دينية، نورانية» وسوف نعيش مثالين أثنين كدليل على ذلك مثال يوسف، عليه السلام، ومثال داوود وسليمان، مثال فيه فرد واحد يدعو لدين الله ومثال فيه ممكلة ودولة تدعو وتعمل بشرع الله.

وأما مثال يوسف، عليه السلام، فبعد أن قربه الملك لعلمه وأخلاقه وصدقه وأخرجه من السجن، كان طلب يوسف، عليه السلام﴿ «قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفظ عليم [١٦] (يوسف ٥٥) وبكلمات أخرى فإن يوسف طلب من الملك أن يجعل تحت تصرفه، خزانة الدولة، أو وزارة المالية فهو حافظ لها، وعالم بما ينبغي أن يصرف فيه المال من أوجه الخير والدعوة وقد حاز يوسف عليه السلام قوة المال وقوة الإعلام. خزانة المال والثروة إلى جانب الإعلام والدعوة. ولما كان يوسف، عليه السلام، ربانيا فقد استخدم هذا الإعلام في الدعوة إلى الله، والى دينه، والى الأخلاق والفضيلة. وهكذا أصبح يوسف الوحيد الملاحق الذي خرج من السجن يمثل عقل البلاد ومنطقها، ومالك لثروتها، فهو يدها التي تنفق على البلاد والعباد، ولسان أعلامها ودعوتها، وهكذا تحرك يوسف بمفرده بمقدرات وطاقات البلاد كلها، لأنه احتل عقلها وروحها وإرادتها، مثل تحكمه في أمور مصر وتوجيهها كمثل الجهاز المتطور الذي يتحكم بطائرة اف ١٥ أو ١٦الضخمة مع الفارق ان ذلك كان نشاط وفعالية أخلاقية رحيمة تبغي الخير للإنسان، بينما الجهاز المتطور في الطائرة الضخمة، نذير شر وخراب لا يستويان مثلا، وليوسف – عليه السلام– مثله الأعلى».

وأما مملكة داوود وسليمان، فقد قام فيها حكم يدعو إلى دين الله [١٧] وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين» (النمل ١٩) وقوله: «.. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» (النمل ٣٠) «.. الا تعلو علي وأتوني مسلمين» (النمل ٣١) وهذا علو لبني إسرآئيل وتمكين لبني إسرائيل، فلما طلب ممن يجلسون إليه، أيهم يأتيه بعرش الملكة بلقيس؟ قال عفريت من الجن: أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك، قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فما نظر إلا وكان العرش ماثلا أمام سليمان، عليه السلام، الذي عرض المساعدة الأولى كان عفريت من الجن ممن سخرهم الله سبحانه لسليمان، وأما الثاني فهو

المؤمن الذي عنده علم من الكتاب. وتعاون المؤمن الذي عنده علم من الكتاب مشروط برسالة بني إسرائيل الربانية. أما عندما تخلو عنها واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر. وهكذا بقي في أيديهم الخيار الآخر، الخيار الثاني «عفريت من الجن مع الفارق فيما يتعلق بسليمان، عليه السلام، فقد سخر الله له الجن وأما بعد التخلي عن دين الله ودعوته فهناك خيار تعاون وتنسيق [18]، «قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين» (النمل ٣٨) «قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين» (النمل ٣٩) «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد طرفك، فلما رآه مستقرا عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني، أأشكر أن أكفر، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم» (النمل ٤٠) . وهكذا يكون اليهود بعد سبي بابل، بل ما كان سبي بابل الا نتيجة إن صد اليهود عن دين الله فوقعوا على خيار «عفريت من الجن».

وهكذا بعد داوود وسليمان، عليهما السلام، تنكب بنو إسرائيل الجادة الصحيحة، وتركوا أمر ربهم، وعصوا تعاليم أنبيائهم ونبذوهم، حتى استحقوا ان يبعث الله عليهم نبوخذ نصر، فخرب هيكلهم، ودمر بلادهم وسباهم، لأنهم لم يسمعوا لدعوات أنبيائهم كما تحدثنا التوراة نفسها عن ذلك، حتى خاطب «الرب» أورشليم ب «الزانية» وشبه بني إسرائيل وأورشليم بالكرم الذي رعاه صاحبه وجعل حوله سياجا واقيا وحافظا، وأعطاهم من كل شيء، ولكنهم لم يحفظوا دين الله، كما أن الكرم لم يعط الإنتاج الذي توقعه صاحبه، بل أنتج شوكا وحسكا فماذا يفعل به صاحبه؟ كما تحدث التوراة سيهدم السور الذي يحفظه ويجعله عرضة لدوس الشعوب.

في مصر بيع يوسف وحيدا أي سبي وحده ولكنه بقي مع ربه وعلى دينه، فمكن الله له بذلك، وفي سبي بابل كانت هناك جحافل كبيرة ولكنهم تخلوا عن منهج الله ودعوة أنبيائهم، فبقيت لديهم، قوة الإنسان أو ضعفه، فتمسكوا بالخيار الثاني، الخيار اللاديني، خيار «عفريت من الجن» فاستطاعوا أن يحتلوا مكانة مرموقة في تلك البلاد في عالم الفكر، ونادوا بالقطيعة بين الوحي والشرع وبين العقل والفكر من جهة أخرى، حتى أنزل الله فيهم : «... فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا

(الحياة الدنيا) فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (البقرة ٧٩) وكذلك قوله تعالى «.. فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا» (آل عمران ١٨٧) (١٩).

الرسالة الفكرية اللادينية لليهودية: «المعنى» اليهودي المتجول يفتش عن نص يحتله

استطاع «الفكر اليهودي» أو بتعبير أدق «فكر بني إسرائيل» أن يشق طريقه في مملكة فارس ومساعدة كورش في الاستيلاء على الملك وتنظيمه، مما جعلهم يحصلون من كورش على قرار بالسماح لهم ببناء الهيكل الثاني والعودة إلى بلادهم من غير أن يكون لهم الحق في الاستقلال والانفصال عن إمبراطورية كورش وهكذا جاء «إعلان كورش» تماما كإعلان «بلفور» عام ١٩١٧، وهذا يظهر من محاول القبائل العربية السامية التي كانت تسكن هذه البلاد من عدم الرضا عن ذلك ومحاولتهم المتكررة للإيقاع بين اليهود وبين كورش بإيغار صدره وإثارة شكوكه بنوايا اليهود في الميل إلى الاستقلال عن طريق بناء القلاع والحصون. وبقي اليهود على هذا الحال منهم من يسكن أرض فلسطين، ومنهم من فضل العيش بعيدا في سوريا وآسيا الوسطى وبلاد اليونان، وكذلك بلاد فارس، وكان لهم دور في نقل علوم الكلدانيين والبابليين والمصريين وحضارة بلاد فارس إلى الاغريق وتلقيح العقل اليوناني بالفكر الشرقي، وكان حصيلته تلك الثورة المعرفية التي نهض بها اليونانيون.

بقي أمر اليهود كذلك إلى أن بعث الله فيهم المسيح عيسى بن مريم برسالة ربانية، تحاول أن تعيدهم للجادة الصحيحة، طريق الله، ولكنهم أعرضوا عن دعوة المسيح وأوقعوا به، وبرسالته وبذلك أفلت حبل السماء من أيديهم وتمسكوا بحبل من الناس، اخذوا بالخيار اللارباني، حتى بعث الله عليهم تيطوس القائد الروماني فخرب الهيكل الثاني وأقدم على تشتيتهم في أطراف الأرض.

وظل اليهود ينشرون الفكر والفلسفة اليونانية ثم الرواقية والأفلاطونية المحدثة في بلاد الشرق القديم، إلى أن بعث الله سبحانه، محمد صلى الله عليه وسلم، بخاتمة الرسالات، فوقف اليهود ضده وأعرضوا عنه كما أعرضوا عن رسالة عيسى من قبل. ولكن بعد أن مكن الله لدينه في الأرض وسقطت امبراطوريات الشرق من رومانية وفارسية وانحسر تأثيرها عن بلاد سوريا والعراق وفارس وشمال أفريقيا، حتى أصبح أكثر العالم

القديم من حدود الصين وحتى ضواحي باريس يدين بالولاء السياسي للخلافة الإسلامية، استطاع اليهود أن يحتلوا خانات متقدمة في ظل الخلافة الإسلامية، وقد ساهموا في إيجاد قوى المعارضة، واحتلوا عقولها ووجهوها ضد الحكم المركزي واخترق العقل الاسرائيلي مواضيع الفلسفة والفكر الإسلامي، حتى الفقه الإسلامي لم ينج من هذا الإختراق [٢٠] . مما جعل ابن كثير يذكر أن مؤسس الدولة العبيدية في شمال أفريقيا كان يهوديا وقد احتل قائده جوهر الصقلي مصر وأقام هناك الدولة الفاطمية كامتداد للدولة العبيدية. ولهذا فالمجاهد صلاح الدين بعد قضائه على الدولة الفاطمية طلب إلى بعض علماء المسلمين تنقية الفقه الإسلامي في مكتبة الجامع الأزهر.

وقد كان تأثير اليهود كبيرا في الممالك الإسلامية التي قامت في الأندلس، سواء من حيث قوة المال أو من حيث الثقافة وتحصيل العلوم في الجامعات الإسلامية.

وبما أن الإسلام رسالة ربانية فلم يستطع العقل اليهودي الانحراف به في الكامل، فقد اقتصر تأثيرها بصورة جزئية في نطاق الفلسفة والعلوم والفقه، بينما نجحت في خلق تلك الفرق المغالية والمتطرفة التي كانت تعمل تفريقا في صفوف الأمة.. وقد دخلت الإسرائيليات الى الفقه الإسلامي عن طريق وضع الاحاديث الكاذبة بهدف تحريف العقيدة وزرع عواطف مزيفة في الأمة مبنية على معلومات خاطئة وغير حقيقية.

وبعد أن ظهر ضعف الممالك والإمارات الإسلامية وانحلال العديد منها وقويت شوكة بعض الممالك الأوروبية، فقد استطاعت «العبقرية الإسرائيلية» التسلل إلى أوروبا بصور شتى فنقلت إليها بعدة أشكال وبأسماء منحولة العلوم والثقافة الإسلامية [٢١]، ورويدا احتل المعنى الإسرائيلي المتجول النص الأوروبي الذي كان يفتقر للعلوم والمعرفة، فملأ هذا النص بأنواع المعرفة التي حصل عليها من الجامعات الإسلامية عن طريق الرافد الإسرائيلي، بالإضافة الى تلك الوفود الطلابية من الأوروبيين الذين كانوا ينهلون علومهم من تلك الجامعات. ولهذا فإن ما يسمى بعصر «النهضة» في أوروبا لم يترل إليها من وحي الإغريق أو من سماء روما مباشرة» [٢٢] وانما عن طريق هؤلاء الطلاب الأوروبيين وهؤلاء «الاسرائيليين» الذين تسللوا إلى أوروبا خاصة بعد أن بانت شيخوخة تلك الممالك الإسلامية، فما كان من «اليهود» (الإسرائيليون) الا أن انتقلوا ليحتلوا جسد أوروبا

وعقلها، وقوة التوجيه فيها، وهكذا ما جاء القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الا والتأثير الإسرائيلي واضح في كيان أوروبا المالي والفكري، وهكذا استطاعوا أن يمسكوا بقيادة الأمور والتحكم بها والقدرة على توجيهها، فبدل أن يتحرك اليهود بقواهم الذاتية فقط تحركوا بإمكانيات أوروبا شرقها وغربها وامتدادها الولايات المتحدة، حيث ملكوا إرادتها وفكرها، وهكذا تنتقل الإسرائيلية لتحتل طرف المعادلة الدولية القوية. مرة بإنتاج الفلسفة القومية والدولة القومية، ومرة بجعل الصراع يقوم على أساس طبقي وهذا التوجه هو الذي قاد النشاط العربي والكردي والفارسي والطوراني وكان من أقوى الأسباب الذي عمل في جسد الامبراطورية العثمانية تخريباً وتفكيكا. ونحن نرى في الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن العشرين تحرك «الاسرائيلية» لتحتل عربة القيادة والتوجيه في بلاد الصين والهند بصمت بعيد عن ضجيج الأضواء الإعلامية.. إنه «المعنى اليهودي» المتجول الذي يفتش عن نصوص يسكنها ويتحرك من خلالها.. إنه «النور بين الأمم» إنها «الرسالة الفكرية» إنها جهاز الكمبيوتر الذي يقود اف ١٦. والصهيونية العالمية وكذلك الدولة الإسرائيلية لا تفكر ولن تقبل بهجرة جماعية ليهود أوروبا وأمريكا الى إسرآئيل. حتى لا يختل ميزان تأثيرهم وتوجيههم على خط سير الأحداث في تلك الدول. فإن تجميع اليهود في بلد واحد حتى وإن بلغ تعدادها ١٥ مليون نسمة فستبقى إمكانياتها وطاقاتها محدودة. وهذه ستكون نهاية تأثير اليهودية العالمية. وبالتالي زوال إمبراطوريتها غير المعلنة. ولهذا يرى بروفيسور درور أن يهاجر مليون يهودي من أوروبا والولايات المتحدة الى إسرائيل في الخمسين سنة القادمة [٢٤] أي أن يهاجر فقط نسبة قليلة من الزيادة الطبيعية لليهود في تلك الدول. وهو بحاجة الى مليون مهاجر يهودي غربي لكي يحافظ على التفوق للعنصر الاشكنازي في التوازن الديمغرافي للمجتمع الإسرائيلي.

وبهذا يمسي موضوع إقامة الدولة اليهودية واستقلالها وتحيزها الظرفي، يحد من دور ونشاط وفاعلية اليهودي المتجول، فإن المعنى الذي يحتل نصا معينا ويسكن فيه ليس من السهولة مغادرته الى حيز آخر فإن خطواته تصبح مكشوفة وعارية وتفقد سلاح التستر والإخفاء، وبهذا يصبح مشروع بناء الدولة اليهودية محرجا للتنقل والتجول اليهودي واحتلال خانة التحكم والتوجه في المجتمعات، وهذا يحرمها من جاهزية التلبس على

الغير. وهذا الارتباك وعدم وضوح الرؤيا هو جوهر النقاش والجدل الدائر في الأوساط الفكرية اليهودية، بين من يرون استمرار دور اليهودي المتجول «النور بين الأمم» من أمثال بروفيسور هريمان كوهين وغيره وبين هؤلاء الذين يرون أن من حق اليهود الاستقرار والاطمئنان في حيّز معين كما رأينا من موقف يهوشواع وغيره ويعوض عن الدور «الأخلاقي» بإقامة «فيالق التعليم» للعالم المتخلف!!

الخلاصة:

يقول الحق تبارك وتعالى: «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلُنّ علوا كبيرا» (الإسراء ٤)، «فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولي باس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا» (الإسراء ٥) «ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا» (الإسراء ٦) «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا» (الإسراء ٧) [٢٥].

الملاحظات والهوامش:

١. مجلة «اتجاهات جديدة» **كيفونيم حدشيم** - اكتوبر ٢٠٠٠، عاموس يوبي، الصندوق القومي اليهودي (كيرن كيميت ليسرائيل) وهي مجلة مختصة بقضايا اليهودية والصهيونية، ص ٨٧ وما بعدها.

يحزقئيل درور، **مذكرة لرئيس الحكومة**، إصدار معهد القدس لدراسة إسرائيل، نشر منظمة الطلاب في الجامعة العبرية في القدس ١٩٨٩ ص ١١٥ وما بعدها.

٢. محاضرة ألقاها عام ١٩٩٥ في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة، نشرتها فصلية «الكرمل» الثقافية العدد ٥٤ شتاء ١٩٩٨، تصدر عن مؤسسة «الكرمل الثقافية» رام الله- فلسطين، ص ١٠٠.

٣. المصدر السابق، ص ١٠٠.

٤. المصدر السابق، ص ١٠١.

٥. المصدر السابق، ص ١٠٢.

٦. بيني موريس **ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧ - ١٩٤٩**، دار نشر «عام عوفيد» (الشعب العامل) تل أبيب، ١٩٩١، انظر ايضا فصلية الكرمل عدد ٥١، ص ٢١٧.

٧. الكرمل عدد ٥١، ربيع ١٩٩٧.

٨. Said Edward W, ***Culture and Imperialism***, New York, Vintage Books, 1994.

٩. **الكرمل**، عدد ٥١، ص ٢٢٠.

١٠. المصدر السابق، ص ٢١٨.

١١. المصدر السابق، ص ٢٢٢-٢٢٩.

١٢. يحزقئيل درور، **مذكرة لرئيس الحكومة** ص ٢٩ (فصل وظيفة الدولة في إسرائيل) وهي الفكرة المركزية التي يحاول أن يؤكدها درور في مؤلفاته الأربعة التي تحمل اسم «مذكرة لرئيس الحكومة» وهي خصوصية دولة اسرائيل الصهيونية وان دولة اسرائيل ما هي إلا اداة لتحقيق الأهداف الصهيونية.

١٣. وليد الخالدي - كي لا ننسى - مؤسسة الدراسات الفلسطينية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٩٩٧ من (ص٣٩) وهذه هي القرى التي هدمها جيش الدفاع الإسرائيلي في حرب ١٩٤٨ وهي لا تضم تلك التجمعات الصغيرة فإذا أضيفت هذه التجمعات فإن العدد سيكون أكثر من ٤٢٠ قرية بكثير.

١٤. انظر يحازقيل درور - مذكرة لرئيس الحكومة - ص٢٤.

١٥. فصلية الكرمل عدد ٥٤ شتاء ١٩٩٨ رام الله فلسطين، ص ١٠٠.

١٦. **القرآن الكريم**، سورة يوسف، الآية ٥٥.

١٧. القرآن الكريم، سورة النمل الآيات، ١٩، ٣٠، ٣١.

١٨. القرآن الكريم، سورة النمل، ٣٨، ٣٩، ٤٠.

١٩. **القرآن الكريم**، سورة البقرة ٧٩، وآل عمران ١٨٧.

٢٠. انظر تفسير ابن كثير، وغيره من التفاسير كالبيضاوي والزمخشري والنسفي والتفسير الكبير الرازي.

٢١. انظر الكتاب القيم في هذا الموضوع - (هيهوديم بتربوت هرنسانس بايطاليا) دور اليهود الثقافي في الرينسانس الإيطالي، بتصيل - ايل روت- مؤسسة بيالك، القدس ١٩٦٢، والكتاب يقع في ٣٤٠ صفحة من الحجم المتوسط، انظر الصفحات ٢٦، ٢٧، ٣٣، ٣٠، ٥٢.

والكتاب عبارة عن مستند وثائقي عن دور المسلمين والعرب واليهود بشكل خاص في النهضة الأوروبية الحديثة، وسوف أقوم بترجمة بعض الفقرات فعلى سبيل المثال ص ٢٦، ٢٧.

٢٢. ويمكن القول من وجهة نظر معينة، بأن يهود ايطاليا في العصور الوسطى عاشوا حياة مزدوجة، حياة البنك الربوي الاقراضي إلى جانب حياة المعابد اليهودية من جهة أخرى. عن هؤلاء الذين أسسوا وعملوا في البنوك نقرأ عنهم عن طريق السجلات الرسمية الإيطالية، وأما الفئة الأخرى وهي ذاتها التي تعلقت بالمعابد نعرف عنهم من الشهادات والمستندات الرسمية يعرفون بأسمائهم الإيطالية.

وليس من السهل التنسيق بين هذه الأسماء، وهو ليس عملا سهلا. ومن المعروف والواضح ان الإسم الإيطالي «ابرامو» هو الإسم العبري إبراهيم، والإسم «جاكوبا» ليس سوى الإسم يعقوب التوراتي. وقد تكون طريقة هذه الأسماء معقدة جدا وبعيدة عن الأصل العبري، وحينئذ لا بد أن نعتمد على الخيال والصوت السماعي أو دلالة الاسم العبري عن طريق الأمثال بمباركة يعقوب (السفر الأول م ط) أو بمباركة موسى عليه السلام (سفر «دبريم لف») فعلى سبيل المثال فإن الإسم الألماني «منديل» وحسب خيال والموسيقى السمعية أو الصوتية الى الإسم الإيطالي «مانوئيلا» وفي حالات خاصة عرف تحت اسم عمونائيل. وأما الإسم بنيامين فقد تغير دائما إلى الإسم «جوليلمو» (لأن يعقوب، قد مثل بنيامين بالذئب وفي الديالكتيك الألماني وولف وهو قريب من الإسم (ويلهلم) وهو كذلك بما يتعلق بالاسم «حزقية» والذي ترجم على الأل، منذ القرن السابع عشر إلى اسم شبيه في موسيقاه للاسم «تشيزارا»، وقد تم قبل فترة وجيزة اكتشاف ونشر هذه الأشياء والأسماء في قوائم سجلات البنوك الإيطالية، هذه الأسماء كانت معروفة حسب السجلات العبرية اليهودية كطلاب للأدب والثقافة اليهودية، أو كمشاركين نشيطين في هذا الأدب. وهكذا على سبيل المثال - فإن مانولا دي بونايوطو رئيس المؤسسة المالية «بانكو ديلا - وأكا» بمدينة فيرتشي، وهو الذي نجا من خطر الموت عند ملاحقة اليهود في أعمال عنف عام ١٤٨٨، وقد عرف عن طريق المثال بانه ليس الا عمانوئيل بن عزرائيل دا- كاميرينو، والذي كان في حينه يساعد أدباء يهود، والمشهور من بين علماء اليهود في إيطاليا في القرن الخامس عشر كان مردخاي بن إبراهيم فينتشي من بلدة مانطوبا وهو ما يمكن ان نعرفه مع الميموناي المحلي، انجيلو دي ابرامو والذي حصل عام ١٤٣٥ على رخصة من بيت جونزاكا لفتح مصرف للقروض. وكذلك نذكر مشهلم بن مناحيم مفولطيرا، والذي كتب وصفا، أخذ بمجامع القلوب، في وصف رحلته الى فلسطين عام ١٤٨١، وقد ذكر في السجلات الإيطالية ليس دائما بشكل محترم، تحت اسم بونا بنطوره دي منولا.. عزاريا منالآدوميين كان من الشخصيات الأدبية المعروفة في الأدب العبري في زمانه، ولكنه كان يوقع على رسائله الصادرة باللغة الإيطالية تحت اسم بونيوطو دي روسو. وبهذا المنهج والأسلوب كان هناك العديد ممن ترجموا الكتب الفلسفية والعلمية من العربية الى الإيطالية او اللاتينية تحت أسماء مستعارة نظرا للنفسية الأوروبية الرافضة للثقافة الإسلامية والعربية والتي تكونت عبر صراع مرير مئات السنين.

حتى في فن التجميل (الكوسماتيكا) كان هناك دور لليهود، ودور تجميل تستقبل روادها ومنذ القرن الخامس عشر والسادس عشر حدث لفاتاريتا سبورتشا أميرة أيمولا العجوز عندما طلبت من اليهودية «أنا» في روما عام ١٥٠٨ معجون من أجل نضارة الوجه ومعالجة تجاعيد الوجه (دور اليهود في عصر النهضة ص ٥٢).

لقد وصلت الروابط بين اليهود في عصر النهضة (الرينسانس) والمسيحيين إلى علاقات صداقة كما

يظهر من خلال علاقة اليهود الحميمة مع الباب كليمنس السابع (١٥٢٣-١٥٣٤) عندما ظهرت بشكل فجائي في جيتو فينيتسيا عام ١٥٢٤ شخصية يهودية شبه خيالية كبمعوث من قبل أخيه يوسف ملك سبط رؤوبين يطلب مساعدة عسكرية منالباب ومن حكام أوروبا في حربه ضد الأتراك. ومن الذين شهدوا بصحة ذلك الفنان المصور موسى دي كاسطيلاتسو. ويظهر أن البابا قد وثق من رسالة رؤوبين فأعطاه رسائل موجهة إلى بعض حكام أوروبا يحثهم على نصرته ومساعدته. وهكذا استطاع رؤوبين أن يجمع إليه القوة الروحية والمادية ليهود روما (المصدر السابق دور اليهود في عصر النهضة ص ٣٠).

لقد بلغ الأمر ان استطاع اليهود فتح أكاديمية يهودية بإيطاليا حتى تلبي حاجات اليهود العلمية وغيرهم وقد انتشرت في صقليا جنوب إيطاليا علوم الطب اليهودي المنقول عن الطب العربي الإسلامي، واقيمت هناك جامعة تعلم مواضيع متعددة تلبي حاجات الجالية اليهودية والمجتمع الإيطالي (دور اليهود في عصر النهضة ص ٤٦، ٤٧) وقد سمح لهم بمزاولة هذا النشاط الجامعي من قبل الملك يوحنان في ١٧ يناير ١٤٦٦.

٢٣. لقد مر وقت ظن الناس فيه أن التأثير الحضاري للمسلمين على النهضةالأوروبية كانت هامشية، وحاول الأوروبيين أنفسهم في العديد من مراجعهم أن يطمسوا دور العرب والمسلمين في البناء الأساسي للمدنية والحضارة الأوروبية، وكان النهضة العلمية الأوروبية تطورت بشكل فجائي دراماتي من غير مثال، والذي وصل فجأة إلى درجة من الكمال العجيبة في القرن الخامس عشر، ولكننا اليوم نعلم أن العلم الكلاسيكي لم ينقطع بشكل كامل عن أوروبا (خاصة وهناك جاليات يهودية سكنت إيطاليا وأوروبا منذ القرن العاشر والحادي عشر بل وقبل ذلك) وعلى هذا فإن النهضة (الرينيسانس) إذا جاز تسميتها بهذا الإسم جاءت على شكل تدريجي وقد كانت بدايتها مع أوائل القرن الثاني عشر. وعلى الرغم من أن الثقافة والفلسفة العربية الإسلامية ارتكزت في نشاتها على تحصيل اليونان لمجمل العلوم والفلسفات، ولكن حصلت بعدها انطلاقة عربية إسلامية في كل العلوم كإنتاج وإبداع إسلامي قد عارض في كثير من أموره المنطلقات اليونانية ذلك التراث اليوناني الذي افتقد ونسي تماما في أوروبا، حتى تم اكتشافه وتناوله وبعثه على أيدي العرب المسلمين في فتوحاتهم الأولى. وقد كانت هذه المعارف والفلسفات منتشرة بل تناولها العرب المسلمون برغبة ونشاط وحماسة عظيمة في نوادي: دمشق، القاهرة، القيروان وفيما بعد في قرطبة، وفي الأندلس في أيام زهوها ويقظتها. وقد نالت هذه العلوم تقديرا واحتراما خاصا من قبل العلماء والفلاسفة العرب الذي نقدوا وحللوا وأضافوا وأبدعوا وشرحوا وطوروا علم الطب الهيبوكراتس، وكذلك في علم النجوم الخاص بفنولوميئوس، وقبل ذلك وإضافة إليه العلم والفسفة الارستوطالية. وهذه العلوم كانت حسب المراجع العربية خاصة المستعملة والمنتشرة في سوريا مع بداية الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وبدور

الدولاب منذ القرن الحادي عشر وما بعده، وعندما بدأت روح التعلم تغزوا أوروبا المسيحية، كان هناك طلاب من بين النصارى متعطشين لتحصيل العلوم من الجامعات الإسلامية في الأندلس كفلسفة ابن رشد (أفيروس) وابن سينا وغيرهم، وقد اعتبر هؤلاء الأوروبيين ان مفاتيح المعرفة والعلوم هي بأيدي العرب المسلمين. فلا طريق ولا وسيلة من نقل تلك العلوم والمعارف الا عن طريق العرب والمسلمين، كيف يمكن الوصول الى تلك المصادر الإسلامية في الوقت الذي كان يفصل أوروبا عن المسلمين حاجز نفسي عدائي عظيم وكان من العسير تخطيه، وبين هذين العالمين: العالم الإسلامي والعالم المسيحي، لم يكن الحاجز ديني فقط ولكن كان هناك حاجزا ثقافيا ولغويا.. عالم اللغة العربية من جهة وعالم اللغة اللاتينية من الجهة الأخرى، ولم تكن من حلقة اتصال بينهما غير اليهودية وبعض المبادرات الفردية من كلا الجانبين فإن اليهودية كانت موجودة في العالمين، ولها كذلك موطىء قدم في مجال العلم والفكر والمعرفة في العالمين. وهذا الدور اليهودي هو الذي قام بوظيفته المتميزة والمهمة في تاريخ العلم والمعرفة كحلقة اتصال وتفاهم بين ثقافتين مختلفتين بل متصادمتين..!! ولطالما رغب اليهود ومارسوا عملية التجوال من بلد إلى آخر بدوافع وأحاسيس كوسمو - سياسية ومصالح اقتصادية والتي تضطرهم للتجول بين بلدان أوروبا وغيرها من بلدان أسيا وأفريقيا، وفي أوروبا المركزية في العصور الوسطى كان من الصعب وجود رجل متعلم. ولهذا قام اليهود، الذين كانوا يتقنون اللغة العربية بدور الوسطاء بين الثقافتين وخاصة في نقل الثقافة الإسلامية إلى أوروبا. فقد قام هؤلاء اليهود بترجمة العديد من المؤلفات العلمية والأبحاث الفلسفية إلى اللغة اللاتينية والى العبرية أيضا. وهذه الترجمات من العربية الى العبرية كانت تصل إلى يهود يعيشون في أوروبا ويتقنون اللغة اللاتينية إلى جانب العبرية ويعرفون الكثير عن النصرانية ومثال هؤلاء (العالم والشارح الراب ابراهيم بن عزرا والذي عاش في الأندلس في القرن الثاني عشر وتجول في العديد من الدول الأوروبية وسكن فترة ليست قصيرة في لندن) وعن هذا الطريق - الوسيط اليهودي- الى جانب مبادرات فردية كما ذكرنا من جانب الأوروبيين أنفسهم انتقلت العلوم والإنتاجات آلإبداعية الإسلامية إلى أوروبا، ولقد بقي لنا مئات بل آلاف المخطوطات من هذا القبيل بأيدي اليهود عن العلوم والفلسفة الإغريقية متمثلة بعلماء وفلاسفة عرب ومسلمين ممن درسوا هذها لعلوم سواء كانت الترجمة عن العربية مباشرة أو عن العبرية. وكل ذلك دخل إلى أوروبا المسيحية ابتداء من القرن الثاني عشر وما بعده، وكان لذلك تاثيرا مباشرا ورئيسيا وحاسما على النهضة الأوروبية، الى جانب ذلك شهدت بعض الفترات حركة ترجمة واسعة من العربية الى اللاتينية وقد قيل حقا أن مع غروب شمس الوجود السياسي والثقافي العربي الإسلامي من الأندلس (اسبانيا) أخذ اليهود الحكمة والعلوم من أيدي المسلمين التي ضعفت وشاخت وأوصلوها بنجاح منقطع النظير وعجيب لأيدي العالم المسيحي الأوروبي المتعطش لهذه المعارف والعلوم وقد كان هناك ثلاث مراكز ترجمة كبيرة وشهيرة:

٢٤. الأول في الأندلس (إسبانيا) والتي بها اندمجت الثقافتان العربية والمسيحية وفي الأساس في مدينة طوليدو، تحت رعاية رجال الدين المسيحيين ومبعوثي البابا وملوك كسطيليا، وكذلك في مدينة برشلونة، والذي كان الرئيس ابراهيم بن حيان من أهم رجال العلم اليهود في العصور الوسطى وقد اشترك في منتصف القرن الثاني عشر مع بلاطو الإيطالي من مدينة طيبولي في ترجمة المخوطات التي أدخلت بواسطتها علوم الرياضيات الى العالم المسيحي اللاتيني، وأما مركز الترجمة الثاني فقد كان في بروبانس والتي أدت وظيفة حلقة الاتصال بين إسبانيا وفرنسا ومن حكمائها (أبناء عائلة ابن تيبون جيلا بعد جيل) الذين قاموا بترجمة العديد من المخطوات العربية إلى العبرية لفائدة اليهود القاطنين إلى الشمال من جبال البيرانيائيم وأما المركز الثالث للترجمة فقد كان في إيطاليا الجنوبية وقد كان حكامها تباعا الواحد تلو الآخر يبدون عناية وأهمية قصوى في رعاية طلاب الحكمة والعلم والتي لم يكن لها مثيل من حيث الشهرة ودورها في كل أوروبا (انظر الصفحات ٦٨، ٧٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦،، ٧٧، ٧٨).

٢٥. يكفي أن نورد المثالث التالي عن دور المسلمين في صنع الحضارة الأوربية «من بين الأصدقاء المقربين للطبيب اليهودي يعقوب مانطينوس (ابن لعائلة يهودية إسبانية والذي تعلم الطب والفلسفة، والذي عاش بعض الوقت في بولونيا، وقد أمضى جل وقت فراغه في ترجمة مؤلفات علمية من اللغة العبرية الى اللغة اللاتينية. وقد اصبح ذو حظوة وشهرة في بلاط البابا كليمنس السابع وقد عين في عام ١٥٢٨ كمحاضر في موضوع الطب في بولونيا) كان الرحالة والمغترب الفذ، صاحب الكفاءات العالية النبيل الحسن بن محمد من مدينة جرانادا، والذي بعد مغامرات في رحلاته في بلدان أفريقيا وخارجها فقد قبض عليه من قبل لصوص البحر وبيع كعبد واقتيد الى البابا ليو العاشر، وبضغط وإغراء من البابا اعتنق المسيحية عام ١٥٢٦ (ويظهر ليس بإيمان تام) وقد غير اسمه إلى جاباني ليو افريكانوس، وبهذا الإسم عرف في الأدب، وقد قام بأعمال خارقة، بل فعل الأعاجيب من أجل نشر الثقاف الشرقية في إيطاليا (حتى ان الكردينال ايجيديو دي فيطربو كان من تلاميذه) وقد قامت علاقات وثيقة مع يعقوب ماطينوس والذي تعلم معه أيضا، وبفضل البروفيسور العظيم والطبيب البارع ومن أجله فقد ألف ليو (الرجل المسلم) قاموسه الثلاثي: العربي والعبري واللاتيني والمحفوظ حتى اليوم في اكسوربال (بالقرب من مدريد) (انظر ص ٧٩، ٨٠).

٢٦. اتجاهات جديدة، مجلة تبحث في اليهودية والصهيونية، عدد أكتوبر، ٢٠٠٠ ص ٨٧.

٢٧. القرآن الكريم، سورة الإسراء، آيات ٤، ٥، ٦، ٧.